سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٣ —

ويمعن أبو يوسف فى تصوير هؤلاء العامة من السجناء فيقول : وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس ؛ فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا ، وقضى الله عليهم ما هم فيه حبسوا ، يخرجون فى السلاسل يتصدقون . وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم ، فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع .

ولقد بلغنى ، وأخبرنى به الثقات ، أنه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين ، حتى يستأمر الوالى فى دفنه ، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ، ويكترون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة[1] » .

وقد نجد فى كتب الأدب والتاريخ ، نبذاً عما كان يفعل بخواص المسجونين إذا دخلوا السجن . كانوا ينزعون عنهم ثيابهم فيلبسون غيرها ، ثم يقيدون ، ويقدم لهم طعام خاص :

حدث ابن وهب قال : أخذنى اسحق (بن إبراهيم) فقيدنى بقيد ثقيل ، وألبسنى جبة صوف . فأقمت كذلك نحو عشرين يوماً ، لا يفتح على الباب إلا مرة واحدة فى كل يوم وليلة ، ويدفع لى فيها خبز شعير وماء حار[2] » .

وحدث سليمان بن وهب قال : « كنت فى يدى محمد بن عبد الملك يطالبنى وأنا منكوب ، وكان يحضرنى كل يوم وأنا فى قيودى ، وعلى جبة صوف[3] » .

(١) كتاب الخراج ص ٨٨
(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخى جـ ١ ص ٤٣
(٣) » » » جـ ١ ص ٩٥

وذكر يعقوب بن داود قال : « حبسنى المهدى ... فى بئر ... وكان يدلى إلى فى كل يوم رغيف وكوز ماء[1] ... » ولما سجن ابن عبد الملك أمر بتقييده فقيد ، ولم يأكل فى طول حبسه إلا رغيفاً واحداً . وكان يأكل العنبة والعنبتين[2] » .

وقيد جعفر بن يحيى فى حبسه بقيد حمار قبل أن يقتل ثم ضربت عنقه[3] .

وسأل الرشيد جعفر بن يحيى يوماً ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين : فى الحبس الضيق والأكبال[4] .

وقيد إيتاخ فى سجنه وصير فى عنقه ثمانون رطلا وقيد ثقيل[5] . وكانت وظيفته رغيفاً وكوزاً من ماء .

ولما حبس إسحق بن إبراهيم عمر بن فرج ألبسه جبة صوف وقيده بالأكبال[6] .

وحبس بختيشوع المتطبب فى المطبق فضرب مائة وخمسين مقرعة وأثقل بالحديد[7] .

وقد كانت جبة الصوف تدهن أحايين كثيرة بالنقط أو بماء الأكارع[8] ، كما فعل بجبة ابن الفرات وغيره[9] . أما القيد فربما بقيت آثاره بعد فكه . وهذا ما حدث لأبى العباس أحمد ... ابن الفرات ، فقد علق بحبال فى يديه بقيت آثارها فيها مدة حياته[10] ، وربما أصاب المسجونين الإهمال ، فلم يكسوا أو يطعموا . وقد ذكر ابن المعتز أن الرشيد أرسل مسروراً الكبير إلى البرامكة ، وهم فى الحبس يتعرف حالهم . فصار إليهم فوجد الفضل ساجداً فهتف به فلم يجبه ، فدنا منه فوجده نائماً بقط . وكان فى ثوب سمل ، وذلك فى الشتاء والبرد شديد[11] .

(١) الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ١٤١
(٢) الطبرى فى حوادث سنة ٢٣٣ جـ ١٢
(٣) » » » ١٨٧ جـ ١١ ص ٦٧٨
(٤) » » » ١٨٧ جـ ١١ ٦٧٠
(٥) » » » ٢٣٥ جـ ١٢ ص ١٣٨٦
(٦) » » » ٢٣٣ جـ ١٢ ص ١٣٧٨
(٧) » » » ٢٤٥ جـ ١٢ ص ١٤٤٧
(٨) كتاب الوزراء للصابى ص ٢٩٨ ، ٢٩٩
(٩) » » » ص ١٠٤
(١٠) » » » ص ٨ و ٩
(١١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٢١

فأنت ترى أن لباس السجناء جبة من صوف ، وأن طعامهم رغيف فى اليوم ، وشرابهم كوز من ماء ، وقيودهم السلاسل والأكبال .

وربما كان للسفهاء فى السجون العامة سيطرة وسلطان . نستدل على ذلك من أبيات قالها عبد الملك بن عبد العزيز وكان قد حبسه الرشيد ، وهى :

ومحلة تحمل المكاره أهلها ... وتقلدوا مشنوءة الأسماء

دار يهاب بها اللئام وتتقى ... وتقل فيها هيبة الكرماء[1]

ولم يكن يسمح للمحبوسين أن يقابلوا أحداً . وقد يكون ذلك بالرشى . حدث محمد بن صالح العلوى قال : « وجاءنى السجان يوماً وقال إن بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك ، وقد حظر على أن يدخل عليك أحد . إلا أنهما أعطتانى دملج ذهب ، وجعلتاه لى إن أوصلتهما إليك ، وقد أذنت لهما ، وهما فى الدهليز ، فاخرج إليهما ...[2] » .

ويقول ابن المعتز إن البرامكة كان يزورهم فى محنتهم من كان يألفهم أيام نعمتهم حتى أن الرشيد كان يقول لسعيد بن وهب « آنس القوم بحديثك ، وأكثر من زيارتهم[3] » .

* * *

وهنا قد يتساءل الإنسان : أكان السجناء يتعلمون فى السجن صناعة ما أو علماً ؟ ويذهب آدم متز[4] إلى أن المسجونين كانوا يشتغلون بنسج التكك ، مستنداً على بيت من الشعر قاله ابن المعتز ، لم نجده فى ديوانه ، وهو :

تعلمت فى السجن نسج التكك ... وكنت امرءاً قبل حبسى ملك

على أننا لا نستطيع أن نجزم بذلك . فابن المعتز سجن فى مكان خاص منفرد ؛ ولم تكن مدة سجنه طويلة حتى يتعلم ، على أنه إذا نفينا ذلك عن ابن المعتز ، فقد يكون للسجناء ، فى السجون العامة الأخرى .

ويحدثنا ابراهيم الموصلى أنه حبس أيام المهدى وضرب قال : فحذقت الكتابة والقراءة فى الحبس . وليس فى هذا أيضا مايوجب التعميم[1] .

* * *

وما كادت المائة الثانية من الهجرة تمضى ، حتى بدأت السجون تنال عناية من الخلفاء ؛ ولا سيما المعتضد . فقد أوقف لها الأموال الكبار لنفقات المحبوسين وثمن أقواتهم وملبسهم وسائر مؤنهم . وقد جعل فى ميزانيته ألف وخمسمائة دينار فى الشهر لذلك[2] . ويحدثنا القفطى أنه عين لمن فى السجون أطباء أفردوا لذلك . فكانوا يدخلون إليهم ويحملون معهم الأدوية والأشربة ، ويطوفون على سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى[3] ، كما جعل للمحبسين ديوان خاص تكتب فيه قصصهم فى دفاتر خاصة يرجعون إليها دائماً[4] .

التعذيب

وكانوا يلجأون فى بعض الأحايين إلى تعذيب السجين تعذيباً مؤلماً . وقد يخص بالعذاب الوزراء والعمال . وسنعرض عليك ألواناً مختلفات من التضييق والتعذيب ؛ فقد كان سليمان بن وهب فى أول حبسه بالبئر « يأنس بالخنافس وبنات وردان ويتمنى الموت لشدة ما هو فيه[5] » .

وحبس محمد بن القاسم ... بن على بن أبى طالب فى الحبس الذى شيد فى بستان موسى « فلما أدخل إليه أكب على وجهه فى أسفل بيت منه : فلما استقر به أصابه من الجهد لضيقه وظلمته ، ومن البرد لندى الموضع ورطوبته ، ما كاد يتلفه[6] » .

أما الضرب والتعذيب فكثير : فقد ضرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسون مقرعة[7] . وضرب يحيى بن خالد ، والفضل ابن يحيى[8] وسوهر محمد بن عبد الملك ، ومنع من النوم ، وكان

(١) اللطائف والظرائف للمقدسى ص ٢٠٤
(٢) مهذب الأغانى ج ٩ ص ١٣١ ترجمة محمد بن صالح
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز : ١٢١ — ١٢٢
(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرة : ج ٢ ص ١٦٥

(١) الأغانى ج ٥ ص ٤
(٢) تاريخ الوزراء للصابى ص ٢١
(٣) القفطى : ص ٢٢١
(٤) الطبرى حوادث سنة ٢٤٩ ج ١٢ ص ١٥١٠
(٥) الفرج بعد الشدة للتنوخى ١ — ٤٣
(٦) الفرج بعد الشدة للتنوخى ١ — ١١٩
(٧) الطبرى فى حوادث سنة ٢٤٥ ج ١٢ ص ١٤٤٧
(٨) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢ ، والمحاسن والمساوى للبيهقى ٥٦٣

ينخس بمسلة « تؤلمه وتدمى جسده[1] » .

ولما سجن المعتز بعد خلعه دفع إلى من يعذبه ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه منها ، ثم جصصوا سرداباً بالجص السخين وأدخلوه فيه وأطبقوا عليه فأصبح ميتاً[2] » .

وقد كان يحدث القتل وضرب الأعناق . وأورد التنوخي قصة قتل نوردها بكاملها ، قال : « حدثني عبيد الله بن أحمد بن الحسن ... وكان خليفة أبي عليّ على القضا بسوق الأهواز بإسناده عن القاضي أبي عمر قال : لما جرى من أمر عبد الله بن المعتز ما جرى حبست وما في لحيتي شعرة بيضاء ، وحبس معي أبو المثنى القاضي ، ومحمد بن داود بن الجراح في دار واحدة ، في ثلاثة أبيات متلاصقة . وكان بيتي في الوسط : وكنا آيسين من الحياة . وكنت إذا جن الليل حدثت أبا المثنى تارة ، ومحمد بن داود تارة . وحدثاني من وراء الأبواب . ويوصي كل واحد منا إلى صاحبه ، ونتوقع القتل ساعة بساعة . فلما كان ذات ليلة ، وقد اغلقت الأبواب ، ونام الموكلون ؛ ونحن نتحدث من بيوتنا إذ أحسسنا بصوت الأقفال تفتح . فارتعنا ، ورجع كل منا إلى صدر بيته . فما شعرت إلا وقد فتح البواب على محمد بن داود ، وأخرج ، وأضجع على المذبح فقال : يا قوم ذبحاً كما تذبح الشاة ؟ أين المصادرات ؟ أين أنتم من أموالي أفتدي بها نفسي . فما التفتوا إلى كلامه ، وذبحوه وأنا أراه من شق الباب ، وقد أضاء السجن من كثرة الشموع ، وصار كأنه نهار . واحتزوا رأسه فأخرجوه معهم ، وجردوا جثته ، وطرحت في بئر الدار وغلقت الأبواب . (قال) فأيقنت بالقتل ، وأقبلت على الصلاة والدعاء والبكاء ، فما مضت إلا ساعة واحدة حتى أحسست بالأقفال تفتح ؛ فعاودني الجزع ، وإذا هم جاؤوا إلى بيت أبي المثنى ففتحوه وأخرجوه وقالوا له : يقول لك أمير المؤمنين ، يا عدو الله ، يا فاسق بم استحللت نكث بيعتي وخلع طاعتي ؟ فقال . لأني علمت أنه لا يصلح للامامة ! فقالوا : إن أمير المؤمنين قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر ، فإن تبت رددناك إلى محبسك ، وإلا قتلناك . فقال أعوذ بالله من الكفر ، ما أتيت ما يوجب الكفر . فلما أيسوا منه مضى بعضهم وعاد فأضجعوه وذبحوه وأنا أراه ، وحملوا رأسه وطرحوا جثته في البئر . فذهب عليّ أمري ، وأقبلت على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله . فلما كان وجه السحر سمعت صوت الأقفال ، فقلت : لم يبق غيري وأنا مقتول . فاستسلمت وفتحوا الباب فأقاموني إلى الصحن ، وقالوا : يقول لك أمير المؤمنين : يا فاعل ويا صانع ، ما حملك على خلع بيعتي ؟ قلت : الخطأ وشقوة الجد . وأنا تائب إلى الله عز وجل من هذا الذنب ... فجاؤا إلى بخني وطيلساني وعمامتي ، فلبست ذلك وأخرجت ، فجيء بي إلى الدار التي كانت برسم ابن الفرات في دار الخليفة . فلما رآني ، أقبل يخاطبني بعظم جنايتي وخطأي ، وأنا أقر بذلك وأستقيل وأتنصل فقال : « وهب لي أمير المؤمنين دمك ، وابتعت منه جرمك بمائة ألف دينار ، أزمتك إياها[1] » .

وقد يعذبون بغير ما ذكرنا . فقد رؤي في أيام المقتدر ، رجل في المطبق مغلولا على ظهره لبنة حديد فيها ستون رطلا[2] . ولما حبس إنتاخ أطعم كثيراً فاستسقى فمنع الماء فمات عطشاً[3] .

* * *

على أن هناك صلة بين التعذيب عند العباسيين ، والتعذيب على أهل أوروبة في القرون الوسطى . وإن كان التعذيب في أوربة يفوق تعذيب العباسيين شدة وفظاظة . فلقد بلغوا فيه مبلغاً من القسوة لا يجاريهم فيه أحد . وقد ذهبوا في الظلم والإرهاق مذاهب شتى ، وتنافسوا في ابتكار أشد وسائل الإرهاب في السجن فظاعة . من ذلك أن بعض السجون المظلمة التي كان يزج فيها السجناء كانت أشبه بمغاور تحت الأرض ، يوصل إليها بسلاليم ، لا ينفذ إليها النور . وكانت السلاليم مؤلفة من عدة درجات ، يختلف بعضها عن بعض في حجمها وارتفاعها ، والغرض من جعلها كذلك تضليل النازل حتى تزل قدمه فيهوى إلى قاع السجن الرهيب .

(يتبع) صلاح الدين المنجد

(١) الطبري في حوادث سنة ٢٣٢
(٢) الطبري في حوادث سنة ٢٥٥

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١ — ١٠٨
(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١ — ١١١
(٣) الطبري حوادث سنة ٣٢٥